ندوة في الجامعة اليسوعية حول كتاب طرابلس بأقلام أبنائها والجوار

ليس القلم بعبدٍ يؤمر فيطيع، فَسِنُّه لسان، وحبره دم، وأما اليد التي تحركه فتجري في مهبه، يوحي إلى أناملها فتنبثق الكلمات، وتصطف تحت رعاية عين الريشة، وحنان مخزون المعاني.

وإنك لا تجرؤ على بسط الورقة لتسودها إذا لم يكن مزاج السيد القلم جاهزًا رائقًا، بل متحمسًا لكي يجسد ما في نفسك من فِكَر؛ والفكرة لا تتم ولادتها بمجرد دورانها في الخواطر، ولا تتمثل كائنًا سويًّا إلا بعد أن

يتكامل لحمها ودمها أسطرًا واضحة الهيئة سليمة الحواس الخمس.

ما أملى عليَّ هذه المقدمةَ، شعوري برهبة المغامرة التي زجني فيها الأخ ناصر جروس، بتكليفي للمرة الثالثة على التوالي خلال مدة قصيرة بالكتابة في الكتاب نفسه، "طرابلس بأقلام أبنائها والجوار"، فقد ارتفع منسوبُ خشيتي من أن يعصاني القلم، أو يتجعد حبره، أو يتبرم قائلًا: من أين لي أن أزودك بجديد أنا الذي لم أترك من قبلُ في المسألةِ مزيدًا لمستزيد؟

قررت أن أتوسل الوقت علَّه يعينني على نزق اليراعةِ وحِرانِ المداد، فرحتُ أستنزف أيامه ولياليه، وساعاتِه وثوانيه، حتى افترَّ ثغر الدواةِ عن نبع من الحنان يهتف بي: قلمُكَ كشجرة الليمون التي لا تجحد أرضها، ولا تضن بمواسمها على القطاف، وهو مدين بنسغه ولفظه، للمدينة التي علمته فك الأبجدية وأغدقت عليه عطرها وسماحتها، ولقنته الديباجة والتأويل، فكيف يضيق بثالثة أو رابعة، وهو الذي، إن أشاح عنها، فقد النضارة والغضاره والجدارة.

بناءً على ما تقدم، تحاشيت العودة إلى مقالي في الكتاب، وإلى مداخلتي في ندوة

مركز الصفدي، ورحت أنشئ ما يليق برحلة الانتقال بين الفيحاء وأم الشرئع، وما يسوغ قوله في مضافة القديس يوسف وحضرة راعي المضافة الأب الرئيس البروفسور سليم دكاش، دون إغفال التنويه بمؤسسة الطوارىء الطرابلسية التي أخذت على عاتقها تنظيم هذا اللقاء، وكذلك الدور الحيوي التعليمي والثقافي الذي يؤديه فرع الجامعة في طرابلس. وبعد هذا، بل قبله بكل تأكيد، أعلن لكم أنه ما كان لي أن أشارك في هذه الندوة الحميمة إلا بعد استئذان من توجب علي المناقب استئذانه، فالمحامون في حضرة نقيبهم ينصتون ويصفقون، لكنهم يهللون إذا

كان النقيب هو النقيبة ماري، نتيمن باسمها ونسعى في ظل سجاياها وفصاحتها، فكيف وقد سنح لي الحوار والجوار والقرب على هذه المستديرة المحترمة.

الأعزاء المنتدون،

بقيت لطرابلس مكتبة عصت الأنواء والأهواء، والصعوبات الأمنية والمالية، فصمد آل جروس وعزموا على تجسيد مصدر اسمهم برنين الكلمات على الورق، لتظل الأجراس من سمات سمائها التي تعقد فيها القباب والمآذن علاقاتها الأزلية وحديثها المتمادي. لكن مهلًا، لا أفرح كثيرًا بهذا، لأن المكتبة الجروسيةَ نجت فيما مضت إلى

نسيان عميق زميلاتها اللواتي كُنَّ يتخطرن في شوراع طرابلس ومنعطفاتها كالحور الغيد، فيتقاطر إليهنّ الشباب لخطب ودِّهِنَّ واستثمار رفوفهنَّ، وقطف ما تيسر فيهن من ثمار، مجاناً أو بالتقسيط المريح جدًّا. فلقد كان كل صاحب مكتبة مفكرًا أو مثقفًا أو شاعرًا، لكن يد الإجرام والتعصب أردت الشاعر ميخائيل فرح الذي جعل من مكتبته سبيل ماء للعطاش، فجفَّ الماء وتصحَّرتِ المكتبات، ثم تهاوت الصروح التعليمية من الفرير إلى الطليان فالأميركان، كأنما ضاق بأعين الحسدة ما كانت عليه طرابلس من تنوع ورونق، فتحالف العقاريون وعاقرو

الوطنية، وأصحاب الأحلام المريضة، ودوائر ادّعت العروبة فطعنت عروسها، وأدخلت كل زناة الليل إلى حجرتها، على ما يقول مظفر النواب.

وحين توقف التقاصف المدفعي الذي دام سنين طويلة، وتوارت العبوات الناسفة وعمليات الخطف والاغتيال، لم تنتهِ آثار ذلك بتوقف الدوي، فثمة دويٌّ غائر في الوجدان العميق، يعيق المدينة عن استعادة دورتها المزدهرة، وثمة إرادة عنيدة تدير عملية إبقائها في حالة الاستنقاع الاقتصادي والاجتماعي.

عذرًا على هذه المرارة، لكنني من الذين شهدوا بأم العين الحروب التي دارت بين الإخوة، وقد زعمَ كلٌّ منهم أنه يحارب من أجل القضية الكبرى، فإذا بهم أثناء ذلك، قد أفلحوا في إصابة خزانات مصفاة طرابلس وتدميرها خزانًا خزانًا، وإطفاء نارها شعلة شعلة، فحولوا ذلك المرفق الاقتصادي العريقَ الأنيق قاعًا صفصفًا، لصالح تجار الخردة والمحروقات الذين كانوا يمارسون أنشطتهم على هوامش ذلك النضال.

نحن أبناء مدينة عانت طويلاً من جلوسها في صندوق بريد جهنمي، تبادل "أبناء الصف الواحد" من خلاله الرسائل

الإجرامية. فلما أنجزت المعارك أهدافها، وسكتت البنادق، سكنت أيضًا الفعاليات وهجرت القدرات، وتحول الاقتصاد من الإنتاج إلى المضاربات، وانتقلت الانتخابات من ميدانٍ للتنافس السياسي إلى سوق لبيع اللوحات الزرقاء لكل من كثر ماله وسال لعابه، وخلا قلبه من المحبة، ونام عقله عن أي فكرة مفيدة.

أختم بسطور قليلة وأقول:

عار علينا إن لم تنطلق المنطقة الاقتصادية الخاصة بكل طاقاتها في أقرب وقت، وهي مرفق يشكل رافعة اقتصادية للبنان كله، من غير أي كلفة تتحملها الدولة.

إثم علينا، أن تدخل الأونسكو معرض رشيد كرامي في قائمة التراث الإنساني، فيما نسمح نحن للأبقار بالتمثيل فوق خشبات مسارحه، على ما رواه لي دولة رئيس الحكومة.

جرم شنيع سيسجل في صحيفة كل سياسي إذا لم نستغل العلاقة مع العراق والتقارب العربي لإعادة تشغيل الأنبوب وبناء مصفاة حديثة، وهذا مرفق آخر يدر الثروة بلا كلفة.

أما الحزن كل الحزن ففي البقاء على أسطوانة "طرابلس أفقر مدن شرق المتوسط"، لأنها غنية بمرافقها وأبنائها،

ومدِّها وجَزْرها، وجُزُرِها وذوبِ قاديشا في نهرها، وبساتينِ زيتونِها وليمونها وعطرِها.

ولكل من اتهمها بأنها قندهار، ومأوى التعصب والمتعصبين أقول عودوا إلى التاريخ، فلقد كان المطران أنطون عبد أحد زعمائها، رغم قلة عدد الموارنة، كما لم يزل مار جرجس يصرع التنين على مداخل كنائسها.

قيل بأنه عندما سئل تشرشل عن سبب اختياره طرابلس، مصبًّا للنفط العراقي على ساحل المتوسط، أجاب:" لو وضعتم بطيخة في كركوك، لتدحرجت تلقائيًّا إلى طرابلس". ويضاف إلى هذا أن الفيحاء أي الفسيحة،

كانت ولا تزال تستقبل البطيخ المتدحرج من مختلف الحضارات والجنسيات، بل هي كما أكد آل جرو، تستقبل الأقلام المتدحرجة من أهلها والجوار إلى صفحات أوراقها الفيحاء.